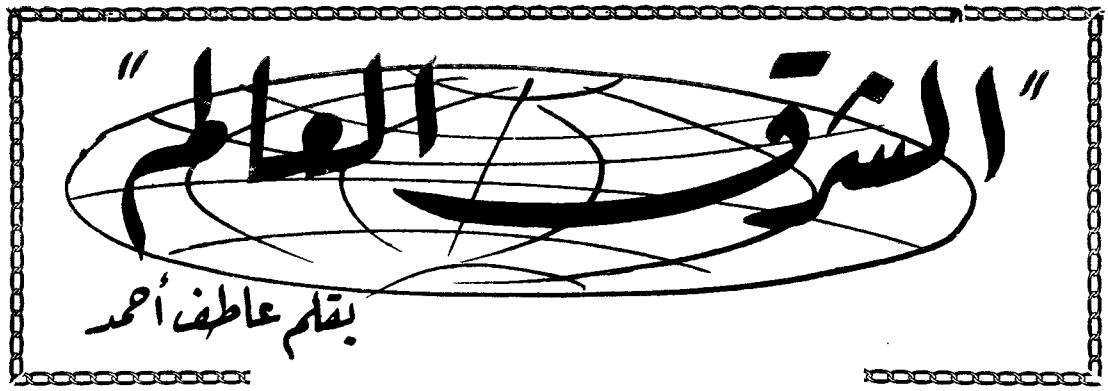

١ ـ مدخل تاريخي :

حينما بدأت الرأسمالية تنمو في قلب المجتمع الاوروبي ، باحثة عن حقول جديدة في ارض الشرق العذراء .. كان على العقل الاوروبي ان يبحث عن فلسفة جديدة ، تفتح له الابواب الموصدة .. واستراح العقل الاوروبي كثيرا ، حينما اهتدى الى ان رسالة اوروبا التاريخية هي حمل مشعل المدنية الى أدغال الشرق المظلمة ..

وكان التفسير الطبيعي للمستوى الحضاري المعاصر آنذاك ، هو بعينه البذرة الخصبة للعقلية الجديدة . فالتخلف الاقتصادي ، الذي يئن الشرق تحت نيره ، ليس افرازا طبيعيا للنظام الاجتماعي المعاصر، وانما هو نتيجة حتمية لطبيعة التربة الكيميائية ..

وأصبحنا نقرأ كثيرا أمثال هذه الكلمات :

« ان منطقة الشرق الاوسط زراعية قبل كل شيء .. وليس في اراضي الشرق الاوسط ترسبات معدنية ذات قيمة .. فليس من المحتمل ان يشهد الشرق الاوسط يوما ما ، تقدما في ميدان الصناعة، عدا الصناعات التي تختص باستخراج المنتجات الزراعية » (١)

ولم يقتصر الامر على مجال الاقتصاد ، انما تعداه الى كافة المناشط البشرية الاخرى .. فكتب ليون جوتييه ـ مثلا ـ يقول :

« يختلف الآريون عن الساميين اختلافا أصيلا في المناشط البشرية كافة ، من ادنى الامور كالطعام والثياب الى أعلاها كالنظم الاجتماعية والسياسية ، فالعقل « السامي » يترك الاشياء مفرقة ، ومفككة كما يصادفها ، وكل ما يفعله ازاءها هو ان يقفز قفزات مباغتة من شيء الى شيء بغير ربط ينسقها معا ، بما يراه فيها من تدرج ، على حين ان العقل « الآري » يركب الاشياء المختلفة تركيبا يعتمد عى روابط متدرجة تجعلها وثيقة العرى بعضها مع بعض ، حتى ليصبح الانتقال من شيء الى شيء أمرا طبيعيا .. » (٢)

وقريب من هذا ، زعم المفكر الفرنسي رينان ، ان الساميين لا يعرفون الفلسفة الا اقتباسا وتقلدا للفلسفة اليونانية .

ونحن هنا ، امام تفسير نوعي للفكر ، يجعل الاصل الجنس لجماعة بشرية معينة ، هو المصدر الوحيد لسماتها العقلية ، ومستوياتها الحضارية جميعا .. مؤديا بذلك الى اكساب المرحلة الفكرية المعاصرة في مجتمع معين ، صفة الابدية والخلود ..

فعلى العقل الشرقي اذن ـ تبعا لهذه النظرية ـ ان يستسلم لمصيره الاسود .. تطارده لعنة سلالته الى الابد ..

ولم تكن امثال هذه النظريات ، لتدهشنا ، حينما نعرف المنبع الحقيقي الذي استقت منه كيانها .. والحاجة الاجتماعية التي استهدفت اشباعها .. وانما يثير الدهشة حقا .. ان تنطلق نفس هذه النغمات من مجتمعنا نحن ..

ذلك بأن الدكتور زكي نجيب محمود .. التلميذ المخلص للفلسفة المثالية الذاتية المعاصرة ، لم يشأ الانحراف عن اخلاصه ، حتى في أشد المسائل بداهة ووضوحا ..

فراح يزعم (١) ، ان العقل الشرقي بطبيعته الاصيلة ، عقل روحاني .. لا يقف ابدا عند حدود المادة ، وانما يتعداها دائما الى الجوهر الباطن .. الى الروح .. بينما العقل الغربي بطبيعته الاصيلة، عقل علمي .. ينظر الى الوجود نظرة منطقية تحليلية ، تستطرد في خطوات استدلالية تنتزع النتائج الصحيحة .. من مقدماتها الصحيحة ..

الا ان الدكتور لم يقف عند حد الزعم ، وانما ارادها نظرية علمية متكاملة . فلنستمع اذن الى حيثياتها كاملة .

٢ ـ الشرق الفنان :

هناك نظرتان مختلفتان الى الوجود ، نظرة الفن ، ونظرة العلم .. نظرة الفن ، هي نظرة حدسية ذاتية مباشرة ، تتم على خطوة واحدة ، تنشد الكائنات في ذاتها ، وبالتالي لا تقبل التعليل المنطقي .

ونظرة العلم ، هي نظرة موضوعية تحليلية ، تتم على خطوتين ، الاولى هي تلقي العالم كما تنطبع به الحواس انطباعا مباشرا ، والثانية هي استخلاص النظريات والقوانين التي تصور مجرى الظواهر والاحداث ، وهي دائما بحاجة الى تعليل منطقي .

ونظرة الشرق الاقصى الى الوجود كانت نظرة الفنان ، على حين كانت نظرة الغرب الى الوجود نظرة العالم ، ولقد جمعت ثقافة الشرق الاوسط النظرتين جنبا الى جنب . ومرجع ذلك كله الى الطبيعة الاصيلة لكل من الشرق والغرب ، تلك الطبيعة النابعة من ارادة الله ..

■ ففي مجال الفلسفة ، نجد ان الفلسفة الغربية نفسها ـ ودع عنك العلوم ـ هي فلسفة تقيم البراهين وتسلسلها مقدمات ونتائج ، ولا كذلك الفلسفة الشرقية القديمة التي تستوحي وجدان القلب وحدس اللقانة وصفاء البصيرة .

■ وفي مجال اللغة ، نجد الكتابة الشرقية القديمة ـ وبعضها ما يزال ـ صورا تصور المسميات تصويرا مباشرا ، مرتكزة في ذلك على الادراك الحسي المباشر لما هو قائم في الوجود الحقيقي الواقع .

■ وفي مجال الدين ، تتمثل روح الفكر الشرقي في الاسفار الدينية وفي الكتب المنزلة : ففي مصر القديمة كان الدين عماد الفكر وأساس النظام الاجتماعي كله ، وكانت نظرته الى الكون والحياة والخلود نظرة حدس ووجدان ، بلغت قمتها في شخص اخناتون ، الذي ربما كان اول انسان في الوجود أدرك وحدانية الوجود .

وفي الهند ، نجد ان وحدة الوجود وتناسخ الارواح ، هما لب الدين والفكر معا ، فالخالق وخلقه شيء واحد ، وكل الاشياء وكل الاحياء كائن واحد ، فاختر ما شئت من صور الكائنات ، تجدها كانت ذات يوم صورة اخرى .. فروح الثقافة الهندية بأسرها هي في دمج الفرد في الكون دمجا يزيل الفواصل التي تميز الفرد عن محيطه ..

واما في الصين ، فانت تجد في عبارات كونفوشيوس انسيابا مرسلا ، حتى لكأنه يتحدث بما تقتضيه المناسبات ، لا بما تحتمه في

---

(١) فتحي خليل : دفاع عن الثقافة العربية ص ٥٠

(٢) ليون جوتييه : تمهيد لدراسة الفلسفة الاسلامية ص ٦٦

(١) زكي نجيب محمود .. الشرق الفنان .. المكتبة الثقافية (٧)

تسلسله مبادىء المنطق الصوري ، ولذلك تراه ينتقل بك من مثل الى مثل ، ومن حالة جزئية الى حالة جزئية ، لا يلتزم في تتابع سياقه الا مجرى السليقة الفطرية في انسياب الحديث .. وما هكذا يسوق حديثه المفكر الغربي ، وانما هو يلتمس المنطق العقلي والبرهان .

■ وحتى في مجال الفن ، نجد ان المعول في الفن الشرقي ليس على صياغة الحقائق الواقعية بواقعيتها كما هي قائمة في العالم ـ كما يعني الفنان الغربي ـ بل المعول هو اندماج الفنان بذاته وبروحه في تلك الحقائق ، ثم على اندماجها بعضها في بعض ، بحيث تؤكد ما بينها جميعا من صلة تجعل منها ومن الفنان حقيقة واحدة .

■ وفي الاخلاق ايضا تجد الفرق واضحا ، فيستحيل مثلا على شرقي أن يجعل مثله الاعلى في الاخلاق متعة الجسد ، على حين قد تجد في الغرب فلسفات اخلاقية باسرها ـ كفلسفة « بنتام » و « مل » تجعل المنفعة والمتعة مبدأ خلقيا صريحا .

العقل الشرقي اذن بطبيعته روحاني ، على حين ان العقل الغربي بطبيعته مادي ..

لكن الطرفين قد اجتمعا في هذا الشرق الاوسط العبقري العجيب ..

والطبيعة المزدوجة للشرق الاوسط ، قد عبرت عن نفسها في العصور القديمة والوسطى على السواء ، ففي مدرسة الاسكندرية بدأ اللاهوت المسيحي لاول مرة ينسق بين العقيدة من جهة والعقل الفلسفي من جهة اخرى ، فهذا هو أفلوطين يتلقى الافلاطونية من أثينا فيكسبها طابعا شرقيا صوفيا ، وهذا هو أوريجين ، يحاول التوفيق بين العقل والدين .. وان كان الانجيل ـ في رأيه ـ يحمل برهان نفسه بنفسه ..

وأما في العصور الوسطى ، فرغم ان المشكلات الفلسفية المعروضة للبحث هي مشكلات دينية ، لكن طريقة معالجتها عقلية منطقية .. كما هو الحال عند المعتزلة من المتكلمين ، وعند فريق « الفلاسفة » المسلمين ، من امثال الكندي والفارابي ..

الا ان الطبيعة المزدوجة لعقل الشرق الاوسط ، ما كانت تقتصر على العقل وحده .. فهؤلاء جماعة المتصوفة المسلمين ، من امثال « ذو النون » المصري ، وابن الفارض ، والحلاج ، والغزالي ، يلجأون لمعرفة الحق الى شيء غير العقل والمنطق ، اذ يلجأون الى الحدس المباشر ..

٣ ـ الفن .. والعلم

يستمد الدكتور تعريفه للفن من نظرية في المعرفة تقول « بنوعين من المعرفة :

■ معرفة تصور الباطن ولا تصلح للمحاجة والمناقشة ، فاما ان نستحسنها فنقبلها ، او نستقبحها فنعرض عنها ..

■ ومعرفة تصور الخارج ، وهذه وحدها هي التي يصح ان يناقش فيها ويجادل لانها هي وحدها التي يجوز لنا ان نصفها بالحق او البطلان » (١)

ولو تساءلنا عن معنى « تصور الباطن » لما وجدنا سوى احتمالين، كلاهما يبطل النتيجة التي تنزع عن هذا النوع من المعرفة قابلية الصواب والخطأ .

« فالباطن » هنا ، اما ان يكون هو ذاته موضوعا للتصوير ، فالعقل اذن هو الاداة ، وهو كما نرى خاضع لقوانين المنطق ..

واما ان يكون « الباطن » هو ذاته اداة للتصوير ، فالكون اذن هو الموضوع .. وهو كما نرى خاضع لقوانين الطبيعة ..

فليس ثمة معرفة ترفض قابلية التحقيق التجريبي ، سوى معرفة لا تعرف شيئا ..

وقانون الذاتية وعدم التناقض ، يناقض تماما القول بنوعين مختلفين من المعرفة ، كلاهما صحيح .

فحقيقة الشيء الواحد ، واحدة بالضرورة .. وانما ادراكنا لها هو منبع الاختلاف . وادراكنا للواقع لا يتجاوز احتمالين اثنين بحال ، فاما انه مطابق للواقع فهو صحيح ، واما انه غير مطابق للواقع فهو ليس بصحيح . وحينما يجعل الدكتور من الحدس ، وسيلة الفن للمعرفة ، ينسى ان الحدس ذاته هو درجة معينة من درجات التفكير ، درجة بدائية لا تعي سوى الوجه الشكلي للواقع .. محاولة تعميم صوره الادراكية على كافة الوجوه الاخرى .. ومن ثم ، فالفن القائم على الحدس وحده ، فن شكلي لا يتعدى مورفولوجية الاشياء ، فضلا عن التعبير عن حقيقتها الباطنة .. وانما الفن الصحيح هو الذي يعبر بالصور ، عن كافة وجوه الواقع تعبيرا متكاملا خلاقا .. والفن اذن ، لا ينشد الكائنات في ذاتها .. وانما يستهدف التعبير عن هذه الكائنات بصورة صحيحة .

وهنا يتحطم الحائل الوهمي الذي أقامه الدكتور زكي ، بين الفن والعلم .. ذلك ان الفن والعلم .. ليسا وسيلتين مختلفتين للمعرفة ، ينشب بينهما تناقض وصراع .. وانما هما وسيلتان مختلفتان للتعبير عن هذه المعرفة .. فبينما يعبر الفن عن الحقيقة بالصور .. يعبر العلم عنها بالمفاهيم (٢)

وجدير بالذكر ان تعريف الدكتور زكي للفن ، يجعل حديثه عن

(١) زكي نجيب محمود .. الشرق الفنان ص ١٢٦

(٢) راجع : ج. نيدوشيفين : علاقة الفن بالواقع ص ٨

دار المعارف لبنان

بناية العسيلي ساحة رياض الصلح ص.ب. ٢٦٧٦

تقدم القصة الانسانية التي تصور جوانب من الحياة الانسانية، تعطي للقارئ صورة صادقة عن حياة الفرد وما يتجاوز من اختلاف الاتجاهات والمذاهب والعواطف

الجريمة والعقاب

• انها قصة الجريمة • وقصة جريمة مغيبة • وقصة نهاية مأساة عذبة

تأليف الكاتب الروسي الشهير فيودور دوستويفسكي

الثمن ١٠٠ ق.ل. او ما يعادلها

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة

قواعد النقد الفني حديث خرافة .. فضلا عن سلبه لكل مقومات علم الجمال .. اذ كيف يقوم علم بما لا يعلم .. ولا يقبل التحليل المنطقي.. بل ان مثل هذا التعريف للفن ، ينزع عنه كل دور فعال في تطـــوير المجتمع ، ويسلبه كل امكانيات الخلق والابداع .. حينما يحصر الاعمال الفنية في نماذج مستقلة فوق الواقع ، وفوق العقل جميعا ..

واستقراؤنا للتاريخ ، يدين مثل هذا الرأي بالبطلان ، ذلك ان الفعالية المتبادلة بين الفن والمجتمع ، ظلت حية ، مزدهرة .. عـــلى مدى التاريخ الانساني كله ..

**

ولسنا نستطيع اذن ، ان نقسم العقل البشري الى عقل فنـــي ، وعقل غير فني . ذلك بان الفن لا يشكل منهجا خاصا في التفكيـر ، وهو اذن ، لا يعطينا جوابا عن المسألة الاساسية في الفلسفة ، أعنـي طبيعة العلاقة بين الفكر والمادة .

وانما تعريف الدكتور زكي ، للعقل الشرقي بانه عقل روحـــاني تصوفي (١) ، يسمح لنا بكل تأكيد ان نضعه داخل أ ســوار المثـــالية الفلسفية . فتصبح الصياغة الصحيحة لنظرية الدكتور هي ان العقل الشرقي بطبيعته الاصيلة عقل مثالي ، بينما العقل العربي بطبيعتـــه الاصيلة عقل مادي ، وتجتمع الطبيعتان في عقل الشرق الاوسط .

٤ ـ التفسير الطبيعي للفكر

الا ان مثل هذا التفسير الطبيعي للفكر ، لا ينهض عليه دليـــل واحد .. رغم ان التدليل المنطقي على الارتباط الوثيق بين العوامـل الطبيعية ـ سواء تجسدت في طبيعة التربة والمناخ ، أم في طبيعـــة التكوين العضوي للبشر ـ وبين الفكر البشري . هو الاساس الوحيـد الذي يمكن ان يدعم مثل هذا الرأي .

ولو بحثنا عن دليل واحد ، لنظرية الدكتور ، لما وجدنا اليـــه سبيلا .. ليس ذلك عن ضعف في مقدرات الدكتور الذهنية ، وانمـا عن عجز في الرأي ذاته .

فطبيعة التربة والمناخ وكافة الظواهر الكونية الاخرى ، لا تشكل بذاتها طريقة فكرية معينة .. وانما انعكاسها في الفكر هو الذي يعطي مثل ذلك المنهج . وعملية الانعكاس هذه انما تستمد جذورها من الواقع الحضاري المعاصر حينذاك . واما طبيعة التكوين العضوي ، فهو فـي خطوطه الاساسية ، سواء .. لدى كافة البشر . واما تنوع السلالات البشرية ، فهو ليس سوى تنوع في السمات المورفولوجية للتكويـــن العضوي ، ولا يتعدى ذلك بحال الى طبيعة المخ نفسه ..

والنتيجة المشتركة لكافة هذه التفسيرات الطبيعية للفكر ، هي ضرورة التوافق بين تطور الفكر وتطور العوامل الطبيعية ..

والواضح ان الفكر البشري في تطور مستمر ، بينما العـوامل الطبيعية تعاني جمودا نسبيا.. ففي المرحلة الطبيعية الواحدة ، نستطيع ان نرى عدة مراحل من أطوار الفكر البشري ..

ولقد أحس الدكتور بهذه الثغرة في نظريته ، وراح يبحث لهـــا عن تبرير طريف .. فكتب يقول « للغرب نزعة عقلية منطقية الا ريثما يثور على نفسه ، وللشرق نزعة روحانية تصوفية فنية الا ريثما يثور على نفسه » (٢)

الا ان مثل هذا التبرير يدين الرأي نفسه ، ذلك بان الثـــورة ، هي تعبير عن تناقضات معينة بدأت تنمو في قلب الشيء ، وظلت تكبر عنده حتى تقلبت عليه في النهاية . الثورة تعي ـ اذا استعرنا لغـة الدكتور ـ طبيعة جديدة تتولد في قلب الطبيعة القديمة ، وهـــذا تناقض واضح ..

اذ ان طبيعة الشيء هي نظام داخلي متناسق يوحد كافة اجزائه فلا يدع جزءا معينا ينفصل عنه ، رافعا ضده راية الثورة ..

(١) الشرق الفنان : ص ١١٩
(٢) الشرق الفنان ص ١١٩

فاذا كان الدكتور قد اقتنع بأن هناك ثورات في الفكر الانساني، فقد حطم ـ لا اراديا ـ نظرية الطبيعة الاصيلة للفكر في مجتمع معين، والتي تصب الفكر في قوالب ثابتة تنغلق عليه الى الابد .

٥ ـ الفكر بين الشرق والغرب :

وجدير بالذكر ان الدكتور لم يناقش نظريته على المستـــوى المنطقي اطلاقا ، وانما حدسها حدسا ، واستراح الى نتائجها .. فراح يستعطف التاريخ بعض الادلة .. الا ان التمحيص العقلي والتاريخ ، يستطيعان الكشف عن أساسها المنهار ..

■ فالكتابة الشرقية القديمة ، حينما تصور المسميات تصويرا مباشرا انما تعبر بذلك عن الواقعية الفوتوغرافية التي تتسم بهـــا المادية البدائية في محاولتها فهم العالم ، وحينما تطورت هذه الطريقة العقلية ، تطورت وفقا لها اشكال التعبير اللغوية ..

■ والفن الغربي ، ليس يقوم على صيانة الحقائق بواقعيتهـــا كما هي قائمة في العالم .. فهذا هو مثلا « جون راسكين » ، يوقـن « ان الجمال هو كشف عن الالهامات الالهية او هو « ختم » ينقشـــه الله في مخلوقاته وحتى اصغر مصنوعاته » (١) بل هذا هو بندتوكروتشه يعلن انه « ليس للجمال وجود فيزيقي » (٢)

ومثل هذا المفهوم للجمال ، لا يقف عند اعتاب المستوى النظري.. وانما الاتجاهات المعاصرة في الفن ، كالسريالية والتكعيبية وغيرهما ، تحققه بالتطبيق ..

■ وفي الاخلاق ، يصر الدكتور على ان العبرة « بالمثل الاعلى » لا بطرائق العيش العقلية (ص ٦٦) . بينما الحقيقة ان طرائـــق العيش الفعلية هي التعبير الوحيد عن « الطبيعة الاصيلة » لمجتـــمع معين .. بل هي المحك الوحيد ، لمدى التوافق او التناقض بين القيم الموروثة من ناحية ، والواقع القائم من ناحية اخرى .. واذا كـــان الدكتور قد أحس ان طرائق العيش العقلية تكذب دعواه ، فعليـه ان يكون منطقيا مع نفسه ، ويرفض هذه الدعوى .

■ الا انه لا يفتأ يتخذ من الفكر الشرقي القديم ـ الفلسفـــة والدين ـ متكأ سهلا يبث به دعواه .. فهل حقا كان الفكر الشرقـي القديم ، فكرا حدسيا صوفيا ؟

ان تعدد الآلهة ، والاصل الميتافيزيقي للعالم ، والتصور الخيالي للنهاية .. كل هذه المعتقدات ، كانت القاسم المشترك في الفكر القديم كله ، الشرقي والغربي على السواء ..

بل ان هذه المعتقدات كانت المحور الاساسي في الفكر اليونانـي القديم ذاته .. « فالآلهة في قمة الاولمب يؤلفون حكومة ملكية عـلى رأسها تزوس ، وكلهم في صورة بشرية ، يحيون حياة البشر ، لا يميزهم منهم الا انهم أذكى عقلا وأقوى جسما وان سائلا عجيبا يجري فـــي عروقهم ، فيكفل لهم الخلود » (٣)

وأما عن العقاب ، فمن أقوال هزيود « ان تزوس أحكامه قويمة ، وعينه تبصر كل شيء ، وساعة العقاب آتية لا محالة » (٤)

وأما عن أصل العالم ، فقد حاول غير واحد من الكتاب والشعراء ، معالجة مثل هذه المسألة في صورة الميثولوجيا ، حتى انهم كانـــوا يدعون باللاهوتيين .. (٥)

كان الفكر المثالي اللاهوتي اذن ، تعبيرا واضحا عن محاولة العقل الانساني كله ، كشف ألغاز الكون .. اللانهائي العظيم .

الا ان ذلك لا يعبر بحال ، عن « طبيعة » مثالية في العقـــل الانساني .. فلقد عرف المجتمع الشرقي القديم ، العلم التجريبـــي

(١) دنيس هويسمان : علم الجمال ص ٥٥
(٢) المصدر السابق ص ٨٣
(٣) دروس في تاريخ الفلسفة : بيومي مدكور ، ويوسف كرم ص١
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق .

البحت ، بل ان العلم المصري القديم قد أسهم في بناء ثقافات اجنبية عديدة ، الثقافة اليونانية ذاتها هي احداها ..(١)

بل ان الشرق القديم ، قد عرف المدارس الفلسفية القائمة على المنطق والبرهان (٢)

■ ففي الهنـــد ، نجد ان مدارس « كابيـلا » و « كانادا » و « غوتاما » قد مارست البحث المنطقي البحت .. وقال اوسطهمـا بالمقولات ، يقسم بها الموجودات والمقولات ، فيرى انها : الجـوهر ، والكيفية والفعل والكلية والجزئية والاضافة .. بل انه فسر العنـاصر الاربعة (النار والهواء والماء والتراب) بانها مؤلفة من ذرات غيـر منقسمة ولا مندثرة ..

بل ان فكرتي الحلول والتصويرية ، في الفلسفة البرهمية لـم تكن سوى نتاج التفكير المنطقي في الوجود ، والبحث عن اصل ثابـت شامل يكون علة كل وجود .. بل لقد كشف بوذا النتائج المنطقية التي قصر عنها البراهمة ، فانكر الذات .. ولقد أحس الدكتـور زكي ، بالتشابه القوي بين فلسفة بوذا في العصر القديم ، وفلسفة هيوم في العصر الحديث .. الا انه راح يؤكد ميتافيزيقية بوذا ، بانه خطـا خطوة بعد هيوم ، ودعا الى التجرد من الجزئيات .. بينما هـذه الخطوة ذاتها تدل على مدى صدق ذلك المفكر مع عقله ومنطقه جميعا..

■ ومن أعماق الصين القديمة ، نستطيع ان نسمع صـوت فيلسوف يدعى لاو ـ تسي ، يذهب الى نوع من الحلول التطوري ، فيقول بأن كل شيء مركب من عنصرين : « طاو » : وهو المبدأ الاول ، ومعناه القانون او العقل . و « كي » او النفس الاول ، وهو مـادة لطيفة يتحد به الطاو ، فيتطوران معا الى جميع صور الوجودات حتى ينتهي التطور الى الراحة القصوى Nibban ، ويعود كـل شيء الى المبدأ الاول ..

ألسنا نحس تشابها قويا بين نظرية لاو ـ تسي في تـركيب الاجسام ، وبين نظرية الهيولى والصورة عند أرسطو ؟

ثم .. ألسنا نجد في الفلسفـة اليونانية ، مدارس حدسيـة صـوفية ؟..

كيف نعلل اذن قول الفيثاغوريين : ان العالم يتركب من عـدد ونغم ؟ بل كيف نعلل عالم المثل عند افلاطون ؟ ثم كيف نعلل قـول أرسطو : ان لكل جسم طبيعي خصائص وأفعالا لا تفسر بالمادة وحدها ، بل بمبدأ باطن يرد المادة المنبسطة في المكان شيئا واحدا (٣) !!

أليس هذا « المبدأ الباطن » ، هو ذاته الاساس الذي جعـله الدكتور محور النظرة الحدسية للعالم ؟!

بل كيف نفسر قول الرواقية بوحدة الوجود وبقـانون ضروري أو عقل كلي منبث من الوجود .. اذا كانت وحدة الوجود والـروح المنبث فيه .. هي الملتقى الاساسي للنظرات الصوفية للكـون والانسان ؟! (ص ٦٧) .

ألسنا نرى اذن ان الحديث عن عقل شرقي صوفي ، وعقل غربي علمي .. بعد كل هذا ، هو حديث خرافة ؟

***

ولقد نتساءل عما اذا كان الفكر الشرقي القديم ، قد قدم لنـا بناء فلسفيا للعالم ، كما فعل الفكر اليوناني .. الجواب بالنفـي . والتعليل بسيط ، فالفلسفة اليونانية ذاتها ، ان هي الا امتداد للفكر الشرقي نفسه .. ونحن نقول مع يوسف كرم(٤)، بان« الشرق لم يعلم اليونان ، أي لم يلقنهم مذهبا أو منهجا ، ولكنه حفزهم الى التفكير بما أدى اليهم من مواد جمعها أثناء قرون طويلة ، فقاموا يعالجونهـا على نحو علمي » ـ حسب مفهوم العلم حينذاك .

ولكننا لا نقول بطبيعة للشرق ، وطبيعة للغرب .. فالفكـر الانساني وحدة كلية لا تتجـزأ بحال .. وانما تتطور على مدى التاريخ . فالفكر الشرقي القديم ، والفلسفة اليونانية على السواء ، انما هما مرحلتان متتاليتان لتطور الفكر الانساني . والواقع المادي هـو النبع الوحيد لمثل هذا التطور .

***

والقول نفسه يصدق على ثقافة الشرق الاوسط ، فلقد كـانت الاسكندرية في القرنين الثاني والاول قبل الميلاد ، ملتقى الثقـافة اليونانية الوافدة مع الاسكندر ، والديانات اليهودية ، والمسيحيـة ـ فيما بعد الميلاد ـ النابعة من الشرق الاوسط .. وكان تفـاعل الثقافتين بالاضافة الى الاوضاع الاجتماعية حينذاك هو المسؤول الاول عن نزعة أفلوطين وأوريجين للتوفيق بين الفلسفة والدين . على ان مدرسة الاسكندرية قد تميزت غير ذلك بنزعات فكرية متطرفة ، فكانت المدرسة اليهودية وعلى رأسها فيلون من ناحية ، وكانت المدرسـة الوثنية وعلى رأسها أمونيوس من ناحية اخرى .

حتى اذا جاء هذا العصر الوسيط ، رأينا العقل التجريبـي والحدس الصوفي ، يقفان جنبا الى جنب ، في الفكر العربي .. بـل أحيانا لدى المفكر العربي الواحد ..

الا ان المصدر الحقيقي للظاهرة ليس طبيعة أصيلة لعقلية الشرق الاوسط ، وانما الواقع الاجتماعي القائم حينذاك ..

ذلك ان « الواقع الاجتماعي للدولة العربية كان زاخرا بالصراع، كأي واقع اجتماعي آخر ، وتطوره انما كان ثمرة للعوامل المتصارعـة فيه ، ولهذا ففي الوقت الذي نلمس فيه هذا الاتجاه العملي ، الـذي انما كان ثمرة للعوامل المتصارعة فيه ، ولهذا ففي الوقت الـذي نلمس فيه هذا الاتجاه العلمي ، الذي يمثل جوهر الفلسفة العربيـة التي تتفق مع الدولة الناشئة الطامحة ، نجد كذلك اتجاها آخـر متناقضا كل التناقض ، ولكنه ليس اتجاها ارسطاليا غائيا ، بل انه اتجاه صوفي اشراقي .. وهو اتجاه معاكس تماما ، يمثل الصراع داخل المجتمع العربي الاسلامي ، ويمثل عوامل النكوص والتخلف » (١)

٦ ـ الدور الاجتماعي للنظرية :

نحن نرى اذن ، ان كل الادلة التي حاول الدكتور زكي ان يستمدها من التاريخ ، انما هي استقراء خاطىء لظواهر فكرية معينة .. والخطأ هنا يكمن في عزل هذه الظواهر عن جذورها النابعة من ارض الواقع..

ثم في تجريدها من حركتها وعلاقاتها المتبادلة مع كافة الظواهـر الاخرى .. ثم تعميمها تعميما مطلقا .. ثم اخيرا في ردها الـى طبيعة ميتافيزيقية تنبع من اعماق الغيب .

وقد كان الانعكاس الاجتماعي لنظريته ، كفيلا بأن يجعـل الدكتور ، اكثر جدية في البحث ، واكثر التزاما للمنطق .. لو انه استهـدف الحقيقـة .

فالتجميد الكامل لتطورنا الفكري والاجتماعي ، هو النتيجـة المباشرة لمثل هذه النظرية ..

فاذا كنا نعيش ثورة تنمو في كافة مجالات الواقـع ، وتستهدف تغييرا شاملا لواقعنا الاجتماعي المتخلف ، فان الدور الرجعي للنظرية الطبيعية يصل الى القمة .

وليس الدكتور زكي من السذاجة بحيث نفترض جهله بهـذه النتيجة .. وليس منطقه بالمنطـق العلمي بحيث نعزو رأيه الـى الاخلاص للحقيقة .

٧ ـ التفسير الاجتماعي للفكر :

ذلك بان للمنطق العلمي في البحث عن مصدر الفكر طريقا اخر.. فالفكر هو النتاج المباشر لحركة الخلايا العصبية .. الخلايا العصبيـة

---

(١) W. C. Dampien : Shorter history of Science P. 12

(٢) راجع : دروس في تاريخ الفلسفة .

(٣) دروس في تاريخ الفلسفة ص ٢٥

(٤) يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٤

(١) محمود امين العالم : كتابات مصرية ـ ص ٦٩ عدد ٢

تستمد حركتها من تفاعلها مع العالم الخارجي .. والدائرة الاولى من العالم الخارجي التي يتحرك داخلها الانسان بمقتضى احتياجاته ، هي المجتمع .. فالفكر اذن نتاج المجتمع .

هل هناك منطق اكثر وضوحا من هذا المنطق ؟ لماذا لم يدلنا الدكتور عليه اذن ؟ لعله يشير الى كتابه « نحو فلسفة علمية » ويقول « اقرأوا . فهذا منطق جديد » (١). ولسوف نقرأ معه هذه الكلمات « دعوانا في هذا الكتاب ، هي ان الفلسفة ينبغي ان تكون تحليلا صرفا ، تحليلا لقضايا العلم بصفة خاصة ، لكي نضمن لها ان تساير العلم في قضاياه ، وان تفيده في توضيح غوامض تلك القضايا ، دون ان تتعرض للضرب في مجاهل الغيب » (٢) . فاذا تساءلنا عن ماهية التحليل ، أجاب « يستحيل ان يكون لكلامي معنى الا اذا حللته الى مفردات اولية ، كل مفرد منها قضية ذرية ، موضوعها حالة جزئية تدرك باحدى الحواس » (٣)

ونحن نسأل الدكتور : لماذا لم تتبع اذن ، هذا المنطق الوضعي ، في تحليل نظريتك عن الشرق الفنان ؟! ولماذا ـ بدلا من ذلك ـ اخذت تتحدث عما وراء العالم المحسوس ، فتتناقض بذلك حتى مع نفسك ؟!

٨ ـ الشرق العالم :

بل ان نظرة واحدة الى الفكر المعاصر ، كفيلة بان تضيء الطريق الى حقيقة الدعوى .

فاذا كانت السمة الجوهرية للعلم ، هي الايمان بواقع مادي موضوعي مستقل عن المعطيات الشعورية ، فان الفلسفة الاوروبية المعاصرة ، تجنح جنوحا شديدا عن المنهج العلمي .

ففي اميركا ، نستطيع ان نسمع صوت وليم جيمس ، يخضع الحقيقة للمنفعة ، ويخضع التجربة العلمية للتجربة الدينية ، مستمدا من الاخيرة عقائدها الثلاث التي ترجع اليها الحياة الدينية « عقيدة ان العالم المنظور جزء من عالم غير منظور يمده بكل قيمته ، وعقيدة ان غاية الانسان الاتحاد بهذا العالم غير المنظور ، وعقيدة ان الصلاة اي المشاركة مع الالوهية فعل له اثره بالضرورة » (٤)

وصوت جوزيا جويس ، يؤمن بان « المطلق كلي ناقص يتكامل على الدوام بان يترجم عن ذاته بافراد .. » (٥)

فاذا تركنا اميركا الى انكلترا ، رأينا هربرت برادلي ، يؤكد ان « الموجود اللامتناهي دون غيره منسجما تمام الانسجام وثابتا لا يتغير لانه كامل ، ولذا كنا ننزع دائما الى الصعود ونريد ان نفنى في المحبة كما يصب النهر في البحر .. » (٦)

وهذا صمويل الكسندر يرى ان « في الطبيعة ميل الى ايجاد صور أرقى فأرقى يعتمد كل منها على ما دونه كما يعتمد الفكر على الجسم ، هذا الميل هو الالوهية »(٧)

ثم هذا هوايتهد « لا يقر العلماء على رد الاشياء الى عناصر عاطلة من الكيفيات » وانما يرى في أجزاء الكائنات « أحداث او وحدات مكانية زمانية وعلاقات بين الاحداث ، تجري هذه وتلك بمقتضى قوانين ثابتة .. جملة هذه القوانين يمثل الالوهية » (٨)

ثم شيلر يؤمن بان « الحقيقة امر شخصي .. »

حتى اذا تساءلنا عن الفلسفة العلمية في فرنسا ، صاح بنا دوركيم قائلا بان « الدين اقوى مظاهر الحياة الاجتماعية وأعمها ، اليه ترجع الصور التي انتظمت بها المعارف الانسانية ، اذ انه الينبوع الذي تفيض منه القوة الجسمية ، والقوة المعنوية في افعال الحياة المشتركة » (١)

ثم هذا هنري بوانكاري ، يجعل من النظرية العلمية مجرد فرض نافع فيقول بان « النظرية العلمية قائمة دائما على قدر من الفرض ، وما النظريات التي يقال انها حقيقية الا أنفع النظريات .. ذلك بان النظريات رموز مجردة يركبها العقل للتعبير عن العلاقات المشاهدة بين الظواهر .. » (٢)

واخيرا هذا هو برجسون يعلن « في وقت ما وفي نقط ما من المكان نبع تيار حي واجتاز أجساما كونها على التوالي وانتقل من جيل الى جيل وانقسم بين الانواع الحية وتشتت بين الافراد دون ان يفقد شيئا من قوته بل انه يزداد قوة كلما تقدم .. اما المادة فقد نشأت من وهن التيار الحيوي أو توقفه ، فما هي الا شيء نفسي تجمد وتمدد .. »

وفي نظرية المعرفة يرى برجسون انما « المعرفة الحقة حدس يدرك الموضوع في ذاته »(٣)

عن اي غرب عالم اذن يتحدث الدكتور زكي نجيب محمود ؟!

وهل توارت الفلسفة الاوروبية المعاصرة عن ناظريه ؟.. كلا .. وانما هي النظرة الحدسية عجزت عن ادراك الجذور الحقيقية للفلسفات المثالية المعاصرة ، ومن ثم لم تعد تدري بأنها هي فلسفات نظام اجتماعي يتحلل من الداخل .. بعد ان بلغ قمة التكنيك العملي وقمة المأساة معا ..

ونفس النظرة الحدسية هي التي حجبت عن بصيرة الدكتور ، حقيقة الشرق المعاصر . فما استطاع ان يرى الفلسفة العلمية وهي تنمو من قلب شرق اوروبا وفي اعماق الشرق الاقصى .

فمادية العالم ، وامكانية المعرفة الصحيحة ، والتشريح العلمي للمجتمع والتاريخ .. هي الاسس الجوهرية للفكر المعاصر في تلك المجتمعات ..

وليست الظاهرة من قبيل « الثورة على النفس » كما قد يعتقد الدكتور ، وانما هو الخط التطوري الصاعد لمجتمعات الشرق الحديث، يمنحها الفلسفة العلمية كنتاج طبيعي لحركة التاريخ .

واما الدكتور ، فلن يقتنع بهذا المنطق ، حتى يرى الواقع الاجتماعي من حوله هو يتغير ، ويحس بالمنهج العلمي يغزو الفكر الشرقي في كافة مجالاته .. ولو أصر الدكتور زكي نجيب محمود حينئذ على نظرته الحدسية لسمعناه يقول بالشرق العالم والغرب الفنان ..

وحينئذ فقط ، سوف تعرف نظريته طريقها جيدا الى متحف الآثار .

القاهرة

عاطف احمد

(١) عنوان الفصل الاول من الكتاب
(٢) زكي نجيب محمود : نحو فلسفة علمية .. ص ١٦
(٣) المصدر السابق .. ص ٢٢
(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤٠٤
(٥) المصدر السابق ص ٤٠٨
(٦) نفس المصدر ص ٤١٢
(٦) نفس المصدر ص ٤١٣
(٨) نفس المصدر ص ٤١٤

(١) نفس المصدر ص ٤١٨
(٢) نفس المصدر ص ٤٢١
(٣) ص ٤٢٦ ـ ص ٤٢٧

طبعت على مطابع :
دار الغد للطباعة والنشر
شارع سوريا ـ بناية بردويل
بيروت (لبنان) ـ
تلفون : ٢٢٩٢١